وقفة امام (ابي الهول)

لراهبي الراعي

يا آله الصمت . ويا ملتقى الاسرار . ويا عقدة الالسنة . ويا مثال للتأملين . ايها العظيم الذي اتخذ عظمته من صمته . يا ربيب الرمال ويا رفيق « الاهرام » ويا محبوبة المصريين . . ايها الاسد الرائع المتحفز منذ القدم للوثوب على فريسته التي لم يجدها بعد . . يا مصيبة الثرثارين . . ويا محط رحال الحائرين . . ايها المتجبر العنيد الذي لم يخفض رأسه لاحد في الدنيا التي مرّت كلها من امامه . . . ايها الضاحك الباكي ، السعيد البائس ، الحائر المهتدي ، المثل الصامي ، القوي باهرامه ، الضعيف برماله ، الجري بصدره ، الجبان بلسانه . . . ايها البحر الذي تلاطمت فيه الامواج ولم تنفث زبدها في فمه . . ايها الساحر المسحور ، سحّره غده الذي يزحف اليه فسحر بدوره يومه الذي يطل عليه . . . ايها الناسك الاكبر الذي لم يؤمن بالعالم فأقام في صومعة الرمال وانقطع الى ربه والى نفسه ، زعيم الناسكين تدق له نواقيس الذكرى في اودية التاريخ التي تعاقبت عليه ومن يستطيع ان يحصيها . . . ايها المثل بالذكريات فمرته بخصورها فلم يقو على العربدة وكيف يعربد الغريق ، وصرعته بحياطها وقبحها فجمد كالمجنون وتطأطأت عليه الخلائق . .

ايها البطل الصائم الذي ازدحمت في بطولته مشاهد القرون على مختلف صورها والوانها فصافت بها فرحاً ولبثت مكانها لا تبدي حراكاً !

ايها المبرّد بوسادته الحجرية لظى المغرمين ، المخجل برباطة جأشه المنحورين الثائرين ، المحطم بصخرة حيرته وشكه سفينة المهتدين ، المخرس بفصاحة عينيه زمرة المعربدين ، الهازئ بالعابرات والعابرين ، الضاحك على الاذلاء الخائفين ، الباكي على الضاحكين الموقظ الراقدين المتخرس في المستيقظين

يا « ابا الهول » الذي حالته نفسه فلم يعرف اين يضعها وكيف يعبر عنها ، ويا فتنة « النيل » ويا عبير الفراعنة ويا رب وادي الملوك ، ايها الامين الاكبر الذي يحمل مفاتيح

التاريخ ولم يخن يوماً واجب الامانة ، ايها المُجرم مع المجهول عهداً يحسده عليه المعلوم، ايها الغارق في لجج اللانهاية ولم يبلل ثوبه ، ايها المبسوط في حجره المتكئ في تسليه ، أيها الطليق بعينيه السجين بين أحاجيه ، ايها الناظر الينا نظرته الغريبة بين صممه وبكمه كأنهُ يفتش في الارض عمن جاءه بالصمم وعقل لسانه ليصعقه ويضمه الى قلب رماله ! !

ايها الرجل العجيب الذي لم يتحرك بعد والكهرباء تشع في فمه وعينيه والطيارة تحلّق فوق رأسه ، ايها الصابر صبراً دهش له ايوب ، ودهشت له الارض التي تحمل موتاها ودهش له البحر الذي يحمل غرقاه والاثير الذي يحمل زفرات البائسين . .

ايها المتمرد الاكبر الذي لو استكشفت اسرار الخليقة كلها لظل وحده بنفسه سرًّا خفيًّا . . ايها الحاكي الذي يردد صدى الانسانية ، ايها المدّاد الاكبر الذي يحصي انوار الخليقة وظلماتها وساعات نعيمها وبؤسها . . .

يا ابا الهول . . . اتيتك بعد تلك القرون التي توالت على رأسك ، اتيتك متأخراً . . . اتيتك في القرن العشرين وتفرست فيك فخطرت لي النعوت والاسماء التي كسوتك بها ، رأيتك بعيني ولم ادر بأي عين رآك اسلافي . . وحرت فيك كما حار الذين تفرسوا فيك من قبلي ورمتني تلك الحيرة بين امواج الخيال فغرقت في اوصافك وتخبطت في اسرارك . . .

ما هي حقيقتك ؟ واين هي ؟ . . وهل تجهلني يا سيدي كما اجهلك . . . من انا ؟ . . انظر اليّ جيداً . . أقويٌّ انا ام ضعيف ؟ اسعيدٌ انا ام بائس . . . انا كاتب يعبث ويعرض في القراطيس رسوم النفس والحياة فهل ازعجك صياحي وهل رأيت رسومي ؟ هل انت شاعرٌ بي ام انت تنظر اليّ وترى نفسك ؟ ؟

قل لي يا « ابا الهول » ألأمسي انا ام لغدي ، واين هو رقمي في جدول الانسانية . وهل في جبيني السطر الذي تفتّش عنهُ منذ القدم ؟ امصيبٌ انا في عقيدتي ام مخطئ ؟ انا للشاعرية فهل في حجرك من شعري وهل الشعراء في نظرك هم الناس . . وهل في صدرك القاسي فؤادٌ رحيم ؟ ؟

اتيتك لاسألك عن حقيقتك وحقيقتي فهل من جواب يخرج من فلك فيريحني... اما تاقت نفسك يا صاحبي الى الكلام ولو مرة واحدة... ألم تسأم الصمت... ولكن لا.. ابق صامتاً فاني اخاف اذا تكلمت . ان لا يقال بعد ذلك : هذا « ابو الطول » . . ان صمتك حديث الناس وقد لا يكون حديثك حديثهم فتكون الكلمة الاولى التي تنطق بها وبالاً عليك ودليلاً على انك لم تكن الاّ حجراً ! ابق صامتاً ، ان قوتك في صمتك، انت ملك يجثم على عرش الصمت فلا تخلع ملكك بيدك . . .

ولعلك فقهت معنى الحياة فرأيت ان الصمت خير ما فيها ، فما الفائدة من الكلام وهل يصلح اللسان ، ذلك الثرثار الضعيف المزعج ليحلّ الاحاجي ويعبر عن اسرار النفس والطبيعة ؟ ! وهل يقوى على الثبات في ساحة النفس الكبيرة الحساسة ساعة يثور بركانها وتتطاير حممها ....

انظر الى الفيلسوف كيف يتخرس ساعة يصطدم بالمجهول ويقف امامه صاغراً ! والى الجندي كيف يعقل لسانه ساعة يصطدم بالخطر ويقبل على الموت ! والى الفنان كيف يصمت صمته العميق ساعة يسحره الجمال وتحتلّ الشاعرية الحقيقية اعماق قلبه . . وانظر الى الفقير الذي شرب عالات الكؤوس كيف يعجز عن النطق وفي فمه كل دموعه، والى المؤمن الناسك كيف يقطع لسانه ليتّصل بالخالق ، والى الثور والاسود كيف تأوي الى عزلتها وصمتها وترتفع عن الخلائق . . .

ابق صامتاً يا « ابا الطول » فقد يكون في صدرك كثير من الحسد والضغينة والرياء والضعف والكبرياء والطمع واللؤم وانا لست بحاجة الى نفث سمومها فيكفيني ما ينساب في طريقي من الافاعي ، يكفيني هذا الانسان الذي يرزع لسانه الشقاء في العالم ويكشف عما انطوى عليه صدره من تلك البضاعة النتنة ! . . .

ابق صامتاً فلا ادري ما وراء لسانك ... ان كنت انساناً فزميلك يكفيني ، وان كنت من جماعة « الاولب » فابق بين آلهتك . . .

ابق صامتاً : فهذه الانسانية الثرثارة لا تخاف الاّ الصامتين